عائشة عصمت تيمور

(٥)

بعد الزواج

تزوجت عائشة فانتقلت بالزواج الى عالم جديد لهُ ما يرافقهُ من حرية ومسؤولية ، وما يخالطهُ من مسرّات وغموم . ولكان يشوقنا أن نقف على وقع هذا الظرف الخطير في نفسها ، وان نستشفّ اللون الذي بدتْ لها الحياةُ بهِ بعد أن اختلفتْ في بعض جوهرها عن حياتها في بيت أبيها

ترى أكان لها من هذا الانتقال مستطابُ الاثر أم مستنكفُ الخبر ؟ أكانت بهِ محظوظةً أم مغبونة ؟

حسن ان نعلم ، بفضل « الدر المنثور » ، انها « هنالك اقتصرت عن المطالعة وإنشاد الاشعار والتفتت الى تدبير المنزل وما يلزم لهُ خصوصاً حينما رُزقت بالاولاد والبنات » . ولكُنّا مضينا على تخمين ذلك وإن لم نُخبر بهِ لانهُ امرٌ طبيعيّ . امرٌ طبيعي كذلك ان يسوقها كسواها عبابُ الحياة اليومية متشابهاً للجميع عادّتهِ ، وان تغاير حتماً لكلّ امرىء بتغاير مزاجهِ وبتفاعل هذا المزاج والاحوال التي تعالجهُ ويعالجها . أما ما ولّدهُ هذا الانتقالُ في الشاعرة من خوالج ، أما نسيج شعورها في تلك الاعوام السحيقة فذاك ما يظلّ مغلقاً علينا لولا لمحات نسترقها في ما كتبتْ ، ولولا القليل الذي ترضى ان تُلقي بهِ الينا ، فتقول :

« وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الاولى من ثمرات فؤادي — وهي توحيده نفحة نفسي وروح أنسي — قد بلغت التاسعة من عمرها فكنت أفتح بروْيتها تفتي يومها من الصباح الى الظهر بين الخابز والاقلام ، وتشتغل بقية يومها الى المساء بابرتها تنسج بها بدائع الصنائع فأدعو لها بالتوفيق شاعرةً بحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنها من النفرة في مثل هذا العمل . ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها عهدت الى خدمة امها واليها فضلاً عن مباشرتها ادارة المنزل ومن فيه من الخدم والاتباع . فتسنى لي ان أنصرف الى زوايا الراحة » (١)

اذا نظرنا الى توحيده بعيني امها وجب ان نسلم بأنها فتاة غير عادية . وسيكون لها من محبة والدتها نصيب فوق نصيب كلّ من اخوتها واخواتها فتكون بذلك أقدر

(١) «مقدمة الديوان التركي والفارسي»

على إزالة من نحبها الهناء او الاسى . لانهُ اذا أطفرنا الذين تبوأوا من قلوبنا المرتبة الاولى بصفوة الغبطة والاستمتاع ، أليس كذلك يأتي عن يدعم أدهمُ ما تساقطُ لهُ المهج حسرة ؟ وبسبب توحيدة هذه ستبكي عائشة كثيراً ، كثيراً

***

كانت قبل الزواج قد اقتبست عن مؤنس افندي القرآن الشريف والفقه والخط ، ودرست على استاذ آخر — خليل افندي رجائي — علم الصرف واللغة الفارسية التي سبق قولنا ان والدها تولى متابعة تلقينها إياها قبيل زفافها ، مكرساً لابنتهِ كل يوم ساعتين من وقتهِ . ثم تلت أعوام جاءت في مطلعها توحيده التي شبَّت فطنة الذهن ، يقظة الفؤاد ، فحملت على منكبيها الفتيين تبعة الادارة المنزلية والتنظيم . فانقلب يشاغلُ عائشة ذلك الشوقُ القديم ، وعاد اليها بقوةِ الحبُّ الذي سار عمرها في الحزن والفرح — حبِّ الدرس والمطالعة . و

« سيخطر لي اذ استأنف ما فاتني في سفري من تعلم فن العروض لجثت بعطفة » . . . . « ولكن لم يمض على الشروع في الدرس ستة اشهر حتى انتقلت العلمة الى رحمة ربها . وكانت بنتي تلازم دروسنا تلك المدة فاستطاعت — بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها — ان تلم بفن العروض اكثر من المامي به » (٢)

توحيدة مرَّة أخرى ! ترى لماذا تشغف الشاعرةُ بذكرها ، والاشادة باسمها ، وإظهار محاسنها ؟ ألما تنطوي عليهِ من توقُّد وذكاء ؟ ألأنها جاءت العالم وعائشة حديثة السنِّ فكانت الامُّ لابنتها — فيما كانتهُ — أختاً كبيرة ، وكانت البنتُ لوالدتها أختاً صغيرة ؟ ألأنها رفعت عنها عبء التدبير المنزليِّ وكانت ، في الوقت نفسه ، أقرب أولادها الى تفهُّم ذوقها وميولها ؟ أم لاجتماع هذه الميزات في توحيدة الواحدة بعد كونها المولود البكر — تلك الميزة الاولى — وبحبِّها ذاقت الشاعرة لذة الامومة للمرَّة الاولى ؟

يتعلق بعض الاهل — لا سيما الامهات — كلَّ التعلُّق بأبكارهم . ولئن أردف قومٌ من المدعوين بعلماء النفس الذين لا تطنُّ منهم الخواطر الا اذا أوجدوا لكلِّ سيل جبلاً يصدمهُ — ان هذا التعلُّق يخفُّ بعد أعوام محدودة ، يوم يفتح الولدُ على الشؤون عيناً ترقبُ وتبرز من شخصيتهِ الخصائصُ المستقلة . وان جماعة

(٢) « مقدمة الديوان التركي والفارسي »

من الامهات يُداخل حبهنّ عندئذٍ بعضُ الكره والنكد لانهنّ يرين في بناتهنّ المنافسات والمسابقات . هذا اذا كانت الامّ من دعيّات التأنّق وعاشقات الملاء الاجتماعيّ في الاندية والحفلات

لئن قال بعض السادة العلماء ذلك فانّ قولهم ينطبق على فئةٍ وتتملّص منهُ أخرى . تتملص منهُ وتُحلّقُ فوقهُ في جوّ المحبة والرحمة والدراية تلك الفئةُ الصالحة من الرجال والنساء المولودين ليكونوا آباء وامهات . لاننا هنا أيضاً نجد المختارين الصميمين ، وعلى مقربة منهم يدبّ الدخلاء ويتحرّش المتطفلون . والحالة الوالدية — كاية حالة طبيعية أو اجتماعية سواها — ان هي كيّفت الافراد فهي لا تكيّفُ منهم سوى فطرتهم بجبلتها ورغباتها وميولها . لذلك هي لا تبدو بأسنى مظاهرها وأبقاها الاّ في الشخصيات المهيّأة لها

وعائشة مهيأة لذلك على ما نرى من ولعها بتوحيدة — توحيدة الآلة القاهرة التي تتحوّل بواسطتها وراكد العاطفة الوالدية عند الشاعرة تياراً دافقاً . فهي تحب منها المواهب والحسنات وتخلق للعيوب المزيلة تفسيراً لا يهتدي اليه ، وبترجمهُ بهذا اللطف ، الاّ من استنار بنور الجنان

هاك مثالاً لذلك :

الفتاة التي كانت تقوم بادارة المنزل ورقابة وضع أعمالهِ الداخلية كانت — على ما يلوح — لا تقصر دون إتقان اعمال أخرى تقتضي بعض البراعة ، كاستقبال الزائرات والاحتفاء بهنّ

فجاءت يوماً بعض السيدات (ويظهر ان الغرض من زيارتهنّ ان يخطبنها ، وهي تجهل ذلك) فغنّت توحيده ترحب بهنّ وربما تأنّى والدنها ، وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف « أوحشتونا » . الاّ انها كان بلسانها لثغةٌ خفيفة قضت بأن تجيء أوحشتونا « أوحستونا ! وهنا دخلت السيدة عائشة فسمعت الكلمة التي حرّفها العيب اللفظيّ ، فهضت تشرح ذلك العيب على هذه الصورة :

قال العوازل مذ قالت مؤانسةً « أوحستنا » انها تجفو وذاك غلطٌ
لم يبدل الشين سيناً لفظها غلطاً بل لم يسع ثغرُها الزاهي ثلاث نقط(٣)

(٣) روى لي هذه الحادثة الصغيرة توفيق بك اسكاروس الباحث الاديب نقلاً عن نفيسة السيد البلاوي وكيل دار الكتب المصرية سابقاً ونقيب الاشراف الآن

ومرّت على الشاعرة فترة — تقول زينب فواز — فقدت خلالها والدها (سنة ١٨٨٢) ثم زوجها بعد ثلاثة أعوام « وصارت حاكة نفسها فأحضرت لها اثنتين لهما المام بالنحو والعروض إحداهما تدعى فاطمة الازهرية والثانية سنيته الطبلاوية وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره وأحسنت الشعر وصارت تنشد القصائد المطوّلة والارجال المتنوعة . . . » (٤)

يجوز الاعتراض هنا بأن عائشة نظمت كثيراً قبل تعلّم النحو والعروض على هاتين السيدتين . فقد طالعنا في ديوانها مثلاً قصائد الترحيب بميلاد أخيها ، وتأبين والدها ، وغير ذلك ، وجميعهُ وقع قبل ان « تبرع في الشعر وتتقن بحورهُ » . ومن هنا نستنتج أن استفادتها من قليل الدروس السابقة كانت غير هزيلة

ولكن ، أليس ان ضوابط النظم تتعلّق بالموسيقى السمعية اكثر منها بالقواعد المدوّنة ؟ والواقع ان هذه القواعد لم تكن الاّ تقريراً محسوساً لتلك المطالب الدقيقة التي تجهر بها حاسة السمع ، فتلبّيها أفراد الطائفة الواحدة كلٌّ من جانبهِ على غير تعاهدٍ مع الآخرين . حتى اذا أجمع كثيرون على امر واحد عرفوا انهُ حاجة اولية فسرّفوهُ بياناً ، ودوّنوهُ قاعدة ، نرجع الى حكمها الاجيال من هذه الطائفة . لا لأنها « حكم » بل لان هذا الحكم يترجم عن الحاجة النفسية التي اشدتها حواس الشعراء في الماضي وستنشدها على الدوام . لذلك ترى ان شعراء جميع البلدان في جميع العصور أوجدوا في مختلف اللغات — غير متحالفين فيما بينهم وجاهلين بعضهم بعضاً — بحوراً للشعر وأوزاناً وضوابط موسيقية ذات وقع لفظيّ في النفس (حتى لمن لا يفهم اللغة) بينما المعنى الشعري يحبو النفس بوقعهِ الخاص . وعوارض المغالاة والاغراق والغموض بصيغة النظم دون المبالاة بالجوهر ، طوارىء تداهم اللغات تبعاً لحالات الاقوام ووفقاً لنواميس الاجتماع ، إلاّ انها لا تنقض من الشعر دعامتهُ الموسيقية المؤثرة

كذلك قد يعترض بعضُ أهل الذوق اعتراضاً خاقتاً على ان معلّمة العروض تُدعى . . . الطبلاوية ، قائلين انهُ على التي تعلّم علم الاوزان الشعرية ان تنتحل لها اسماً يتفقُ مع عملها ويوحيهِ للسامع . ولكن ، أليس للطبل من موسيقى ؟ وإن لم يكن للطبل شدو اللحن والنغم ، أليس انّ لهُ موسيقى الفصل والوقع والتعريف ؟

(٤) « الدر المنثور »

والسيدة الطبلاوية لم تكن تتقن الشعر ، وهو ليس مما يُتلقَّن ، بل تعلّم كيفية التمييز بين اتزانه وانكساره . فعلمها هذا متضمن لعلمها وعملها

وسواء رضي اهل الذوق هذا الشرح ام لم يرضوا فليذكروا انهُ أمرٌ فائق ان يوجد بين السيدات الشرقيات من يستطعن في ذلك العهد المظلم للنساء ان يدرّسن هذه الدروس ، في حين ان من يستطعنهُ اليوم نادرات بيننا وقليلات عند الشعوب الاخرى. اذكر ان كاتباً فرنسويًّا كبيراً (اظنّ الفرد كابس Alfred Capus) ندّد قبيل الحرب في مجلّة « فينا » بالسيدات الفراساويات لأنهنّ ، بعد إحصاء فئة من المتعلّمات بينهنّ ، ظهر ان العارفات بقواعد النظم وأصول البحور الشعرية ، يكدن لا يبلغن الخمس في المائة . فما اعظم فضل تينك السيدتين الازهرية والاخرى ، ولو كانت الطبلاوية ، بما كنا نعرفان ، وبأنهما أضافتا الى مصباح عائشة زيتاً يعين على تغذية نوره !

***

بيد أنّ تتمّة لشاعرة بالابنة المحبوبة لن يطول . قُدّر على توحيده ان تموت باكراً في ربيع الصبا . علّة مجهولة ترقبها وتنفثُ في جسدها وهي تكتم امرها رفقاً بالتي تحبّها . وها هي تسردُ لنا طرفاً من حديثها المحزن :

« قبل ان تنطرح على فراش المرض فاجأتها في احد الاوقات وهي في رداء نومها وبين انامليها قلم تكتب به القطعة العربية الآتية :

اسمع مقالي يا أديب وقصتي شرح مريب
قد كنت في درج الصبي اهتز كالغصن الرطيب
اصبحت حالي عبرة يبكي على مثلي الغريب
كلا ، ولا لي منهل أروى به الا النحيب
فالدمع مني ساجم والرمس أضحى لي قريب
يا ربي عجل رحلتي واغفر ذنوبي بالحبيب

« فلما رأتني مقبلة عليها دست رقعة الشعر تحت وسادتها بسرعة ولكني بادرت في الحال لاستخرجها فاختطفتها مني » . ثم « خاطبتني قائلة « لا تسأي يا امي الشفقة بمثل هذه الثرثرة » . ثم قالت لجاريتها « خذي هذه الورقة فأحرقيها » فلحقت بالجارية واخذت الورقة منها وألححت عليها بالسؤال فاجابتني « ان سيدتي تتناول الطعام معك اذعاناً لرأفة امومتك ، ولكن الطعام لا يبقى بعد ذلك لحظة في جوفها وهي تذهب كل ليلة الى سرير نومها تطيباً لقلبك غير انها لا يغمض لها جفن » . . . (٥)

(٥) و(٦) « مقدمة الديوان التركي والفارسي »

إن نحن وجدنا هنا دليلاً جديداً على لطافة توحيدة وحرصها على راحة والدتها ، فلا يسعنا إلاّ التعجّب كيف ان الامّ الشديدة الحبّ لم تلح على وجه ابنتها امارات المرض . تتعجب — لولا الاستدراك بأن التي ترى ان ثغر توحيده الزاهي لا يسع ثلاث نقط فيقلبُ الشين سيناً ، قد تعثر بسرعة على عذر شعريّ يكتفي به قلبها لكلّ تغيّر وكلّ شحوب

أمّا وقد ثبت أن الفتاة مريضة حتى لترثي نفسها ، فهاتوا الاطباء ، وهاتوا العلاجات ، وبالغوا في الاعتناء والمداراة ! إلاّ ان المقدور نافذٌ لا محالة . والمريضة تعلن ذلك وتلقي على والدتها كلمات التعزية والتشجيع . انها أقبلت على عالم السرّ والرهبة فاستمدّت منهُ الحكمة التي تهبط على كلّ من حاذاهُ . واستلهمت الغيب ارشاداً للمتخلفين فقامت ، وهي الصغيرة وهم الكبار ، تعظهم بسطوة الراحل وحقه على النصح والتوديع الهادىء :

« عيشاً تعشك الشفقة يا امام الى معالجة امراضي فانه قد آن الاوان . ولا مناص من تلبية نداء المنادي « كل من عليها فان » واني اضرع الى الله ان يلهمك صبر ايوب وان يمنحني لمسة رضاك فيكون ذلك سبب الراحة لي والتجاوز عن سيئاتي وان يمسك شفيقتي واختي »

« ثم ضمتني الى صدرها فاعتنقنا . وبتنا ليلتنا الى الصباح في بكاء واكتئاب ونواح »(٦)

قضت توحيده ، فاقامت لها الامُّ مناحةً دامت سبعة أعوام متوالية ، فأضعف البكاء نظرها وأصابها الرمد . « وهنالك كثرت لواحيها وعواذلها من اولادها وصويحباتها » . « واخيراً سمعت قول الناصحين وقللت شيئاً فشيئاً من البكاء والنوح حتى شفاها الله من مرض العيون » (٧) . وهذا خبر ذلك الشفاء من قلمها :

« اصبح جسمي النحيف كأنه فاقد الحياة لكثرة اتعابي واوصابي . ثم انعم الله علي بالشفاء واشرقت ظلمات كآبتي بنور وجود ابني محمود فكان فرحة بيت الحزن » (٨)

يخيّل ان هذا الفتى محمود شبّ على شيء من ميول توحيدة ، وكأنهُ قد صمّم على ان يقوم ببعض ما كانت تقوم بهِ اختهُ الكبرى ليفوز بتعزية والدتهِ ويريح نفسها الحاصة . ويظهر انهُ نجح . لانهُ هو « فرحة بيت الحزن » الذي شرع ينصح ويؤاسي ويذكر الام الحزينة بالآية الكريمة : « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليهِ راجعون » . وهو الذي طلب اشعارها العربية ليجمعها ،

(٧) « الدر المنثور » (٨) مقدمة الديوان التركي والفارسي

وأشعارها التركية ليطبعها فتكون « أثراً من آثار براعتك وفصاحتك » (٩) فقالت :

« في استطاعتي ان انظم الآن شيئاً من الشعر شكراً لله تعالى على ما وهبني من النعم . اما اشعاري الماضية فكنت قد احرقتها كلها ، ولا اظن انه في مكتبتي الا الشيء اليسير منها بالعربية والتركية . واما اشعاري الفارسية فانها لما كانت في محفظة فقيدتي فقد احرقتها بمحفظتها كما احترق كبدي

« ان املك يا بني لم تبق عندها الآن رغبة لي لقراءة شيء من كتب الادب » « وسأنصرف الى الانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوي واني وهبتك ما عندي من الكتب والاوراق تصنع بها ما شئت » واذا رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها » (١٠)

وكان ميل محمود شديداً — وكل ابن لأمٍّ ذكية يدرك ذلك — الى إظهار فضل والدته بصورة عامة . فنشر الكتب وكان له بذلك علينا حقّ الامتنان

***

في عنوان هذا الفصل « بعد الزواج » شبه وعدٍ بشرح أحوال غير معروفة وتبيين دقائق غامضة . وها انا لم آتِ إلاّ ببعض الخطوط الكبرى التي استطعتُ تناولها . بيد ان الشرح لا ينتهي بانتهاء هذه الصحيفة . وعندما ننظر في شعر عائشة ونثرها وآرائها نظلُّ نماشي تسلسل الايام والأعوام في حياتها لأنّ كلّ ما لدينا منها دوّنتهُ إلاّ القليل بعد الزواج

يخيَّل ان آجال الافراد عموماً تخضع لمقدّرين اكبرين اثنين : أحدهما مداومة السير واستمرار التتابع ضمن حدودٍ طبيعيّة وفي دائرة قوانين محتومة . والمقدّر الآخر هو ان يعمل المرء طول حياته — مع بعض التغير في أنواع العمل بمقتضى الأطوار المختلفة — باختيارٍ مسيّر — ان صحّ الجمع بين هذين النقيضين . وكأنّ العمل ينجزُ هو الآخر ضمن حدودٍ ضُربت لهُ وفي دائرة قوانين لا يخرقها الاّ مستهتراً مفسداً على نفسه إمكان المعيشة

جداول جداول تجري اعمارُ الافراد نحو ما وراء الموت ممّا لا يُحَدُّ ولا يُدرك . جداول يسيطر عليها ذانك المقدّران الشاملان في المرض والعافية ، في الفرح والترح ، في الامل والقنوط ، في الرغبة والاشتياق ، في المحبة والكراهة . والاصوات المختلفة المتصاعدة بتأثير هذه العوامل تكوّن شدو الجداول البشرية — ذلك الشدو المطرب المشجي . وهذا الجدول من عمر عائشة هو الذي سنسمعهُ شادياً في ما يلي بإبهام كلّ خريرٍ ، ولذّة كلّ قدمٍ ، وتبشير كلّ رائد . . . (يتبع)

(٩) و (١٠) مقدمة الديوان التركي والفارسي